مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أُمُورٌ تَتَوَقَّفُ وَتَتَرَتَّبُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ

فَقَدْ مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- ذِكْرُ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهُنَاكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مُتَرَتِّبَةٌ وَمُتَوَقِّفَةٌ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ، رُجِيَ حُصُولُهَا، وَإِذَا فُقِدَ التَّدَبُّرُ امْتَنَعَ حُصُولُهَا أَوْ يَكَادُ، أَوْ قَلَّ نَفْعُهَا، أَوْ ضَعُفَ شَأْنُهَا، أَوْ كَانَ فَضْلُهَا يَدُورُ مَعَ التَّدَبُّرِ وُجُودًا وَعَدَمًا.

لِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

* **وَمِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ: عِظَمُ أَجْرِ التِّلَاوَةِ**؛ فَإِنَّ أَجْرَ التِّلَاوَةِ يُرْجَىٰ بِأَدَاءِ التِّلَاوَةِ، وَلَكِنَّ عِظَمَ الْأَجْرِ يُرْجَىٰ بِمَزِيدِ التَّدَبُّرِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَا يَتْلُوهُ الْقَارِئُ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَنَّ التِّلَاوَةَ أَفْضَلُ الْأَذْكَارِ، وَأَنَّ الْمَطْلُوبَ الْقِرَاءَةُ بِفَهْمٍ».

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ مَنْ رَتَّلَ وَتَأَمَّلَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِجَوْهَرَةٍ وَاحِدَةٍ ثَمِينَةٍ، وَمَنْ أَسْرَعَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعِدَّةِ جَوَاهِرَ، لَكِنَّ قِيمَتَهَا قِيمَةُ الْوَاحِدَةِ، وَقَدْ تَكُونُ قِيمَةُ الْوَاحِدَةِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ الْأُخْرَيَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الْعَكْسُ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ: «وَأَحْسَنَ بَعْضُ أَئِمَّتِنَا فَقَالَ: إِنَّ ثَوَابَ قِرَاءَةِ التَّرْتِيلِ أَجَلُّ قَدْرًا، وَثَوَابُ الْكَثْرَةِ أَكْثَرُ عَدَدًا».

وَقَالَ عَنْ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ: «الْمُرَادُ بِإِعْرَابِهِ مَعْرِفَةُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ الْإِعْرَابَ الْمُصْطَلَحَ عَلَيْهِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَهُوَ مَا يُقَابِلُ اللَّحْنَ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ مَعَ فَقْدِهِ لَيْسَتْ قِرَاءَةً، وَلَا ثَوَابَ فِيهَا».

قَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالصَّحِيحُ -بَلِ الصَّوَابُ- مَا عَلَيْهِ مُعْظَمُ السَّلَفِ، وَهُوَ أَنَّ التَّرْتِيلَ وَالتَّدَبُّرَ مَعَ قِلَّةِ الْقِرَاءَةِ، أَفْضَلُ مِنَ السُّرْعَةِ مَعَ كَثْرَتِهَا، فَهَذَا مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَيَتَوَقَّفُ عَلَىٰ ذَلِكَ -أَيْضًا- حُصُولُ بَرَكَةِ الْقُرْآنِ، وَانْتِفَاعُ الْقَلْبِ بِهِ».

قَالَ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّ اللهَ وَعَدَ لِمَنِ اسْتَمَعَ كَلَامَهُ فَأَحْسَنَ الْأَدَبَ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِ بِالِاعْتِبَارِ الْجَمِيلِ، وَلُزُومِ الْوَاجِبِ لِاتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ اللهَ وَعَدَ مَنِ اسْتَمَعَ كَلَامَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ بِبُشْرَىٰ مِنْهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَوَعَدَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَفْضَلَ الثَّوَابِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧- ١٨].

سَمِعُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- يَقُولُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فَكَانَ حُسْنُ اسْتِمَاعِهِمْ يَبْعَثُهُمْ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ أَصْغَىٰ إِلَىٰ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ بِعَقْلِهِ، وَتَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ؛ وَجَدَ فِيهِ مِنَ الْفَهْمِ وَالْحَلَاوَةِ وَالْهُدَىٰ وَشِفَاءِ الْقُلُوبِ وَالْبَرَكَةِ وَالْمَنْفَعَةِ مَا لَا يَجِدُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ، لَا مَنْظُومِهِ وَلَا مَنْثُورِهِ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمَاعُ الْقُرْآنِ بِالِاعْتِبَارَاتِ الثَّلَاثَةِ إِدْرَاكًا وَفَهْمًا وَتَدَبُّرًا وَإِجَابَةً، لَنْ يَعْدِمَ مَنِ اخْتَارَ هَذَا السَّمَاعَ إِرْشَادًا لِحُجَّةٍ، وَتَبْصِرَةً لِعِبْرَةٍ، وَتَذْكِرَةً لِمَعْرِفَةٍ، وَفِكْرَةً فِي آيَةٍ، وَدَلَالَةً عَلَىٰ رُشْدٍ، وَحَيَاةً لِقَلْبٍ، وَغِذَاءً وَدَوَاءً وَشِفَاءً، وَعِصْمَةً وَنَجَاةً وَكَشْفَ شُبْهَةٍ، وَمَنْ هَجَرَ التَّدَبُّرَ فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً.

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا».

لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا.

*** وَمِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ مِنَ الْمُصْحَفِ، وَالْقِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، فَإِنَّ هَذَا مَنُوطٌ بِالتَّدَبُّرِ.**

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ فَيُخْتَارُ الْقِرَاءَةُ فِي الْمُصْحَفِ لِمَنِ اسْتَوَىٰ خُشُوعُهُ وَتَدَبُّرُهُ فِي حَالَتَيِ الْقِرَاءَةِ فِي الْمُصْحَفِ وَعَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَيُخْتَارُ الْقِرَاءَةُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ لِمَنْ يَكْمُلُ بِذَلِكَ خُشُوعُهُ، وَيَزِيدُ عَلَىٰ خُشُوعِهِ لَوْ تَدَبَّرَهُ قِرَاءَةً مِنَ الْمُصْحَفِ.

لَوْ قُلْنَا هَذَا لَكَانَ قَوْلًا حَسَنًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كَلَامَ السَّلَفِ وَفِعْلَهُمْ مَحْمُولٌ عَلَىٰ هَذَا التَّفْصِيلِ».

*** يَتَرَتَّبُ -أَيْضًا- عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَفَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ خَارِجَهَا.**

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ وَفَهْمٌ لِلْقِرَاءَةِ دُونَ الصَّلَاةِ، فَالْأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مَا كَانَ أَنْفَعَ لَهُ».

*** وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْإِسْرَارِ بِهَا.**

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَاءَتْ آثَارٌ بِفَضِيلَةِ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ وَآثَارٌ بِفَضِيلَةِ الْإِسْرَارِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْإِسْرَارَ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّ مَنْ يَخَافُ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَخَفِ الرِّيَاءَ فَالْجَهْرُ أَفْضَلُ، بِشَرْطِ أَلَّا يُؤْذِيَ غَيْرَهُ مِنْ مُصَلٍّ أَوْ نَائِمٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا.

وَدَلِيلُ فَضِيلَةِ الْجَهْرِ أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِ أَكْثَرُ، وَلِأَنَّهُ يَتَعَدَّىٰ نَفْعُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلِأَنَّهُ يُوقِظُ الْقَلْبَ وَيَجْمَعُ هَمَّهُ إِلَىٰ الْفِكْرِ، وَيَصْرِفُ سَمْعَهُ إِلَيْهِ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: فَمَتَىٰ حَضَرَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ النِّيَّاتِ، فَالْجَهْرُ أَفْضَلُ».

*** يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ أَيْضًا: تَرْتِيبُ أَوْلَوِيَّاتِ طَلَبِ الْعُلُومِ،** فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ قَدْ تَكُونُ مَفْضُولَةً، وَمَعَ التَّدَبُّرِ تَكُونُ مُقَدَّمَةً؛ لِأَنَّهَا أَنْفَعُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ.

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لَهُ: تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ مَعَ أَمْنِ النِّسْيَانِ؟ أَوِ التَّسْبِيحُ وَمَا عَدَاهُ؟

فَأَجَابَ: «الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَجِدُ فِي الذِّكْرِ مِنَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَانْدِفَاعِ الْوَسَاوِسِ عَنْهُ، وَمَزِيدِ السَّكِينَةِ وَالنُّورِ وَالْهُدَىٰ؛ مَا لَا يَجِدُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ لَا يَحْضُرُ قَلْبُهُ وَفَهْمُهُ.

كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْتَمِعُ قَلْبُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ مَا لَا يَجْتَمِعُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ أَفْضَلَ يُشْرَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يُشْرَعُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ أَفْضَلُ لَهُ».

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ تَكْرَارِ الْقُرْآنِ وَالْفِقْهِ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا؟

فَأَجَابَ: «كَلَامُ اللهِ لَا يُقَاسُ بِهِ كَلَامُ الْخَلْقِ، وَأَمَّا الْأَفْضَلُ فِي حَقِّ الشَّخْصِ، فَهُوَ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ، فَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تَعَلُّمِ غَيْرِهِ فَتَعَلُّمُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ تَكْرَارِ التِّلَاوَةِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَكْرَارِهَا.

وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ حَفِظَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ عِلْمٍ آخَرَ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، فَتَعَلُّمُهُ لِمَا لَا يَفْهَمُهُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تِلَاوَةِ مَا لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا مَنْ تَعَبَّدَ بِتِلَاوَةِ الْفِقْهِ؛ فَتَعَبُّدُهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ، وَتَدَبُّرُهُ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامٍ لَا يَحْتَاجُ لِتَدَبُّرِهِ».

* **يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ الْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ: قِصَرُ الْمُدَّةِ الَّتِي يَخْتِمُ فِيهَا الْقُرْآنَ**، فَإِنَّ فَضِيلَتَهَا مُرَتَّبَةٌ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَأَثُّرِ الْقَلْبِ بِهِ.

حِينَمَا سُئِلَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ تَرَىٰ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي سَبْعٍ؟

قَالَ: حَسَنٌ، وَلَأَنْ أَقْرَأَهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ عَشْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَسَلْنِي لِمَ ذَاكَ؟

قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ؟

قَالَ زَيْدٌ: لِكَيْ أَتَدَبَّرَهُ، وَأَقِفَ عَلَيْهِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قِرَاءَةِ الْإِمَامِ فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ: «لَيْسَ الْمُهِمُّ أَنْ يَخْتِمَ، وَإِنَّمَا الْمُهِمُّ أَنْ يَنْتَفِعَ النَّاسُ فِي صَلَاتِهِ، وَفِي خُشُوعِهِ، وَفِي قِرَاءَتِهِ، حَتَّىٰ يَسْتَفِيدُوا وَيَطْمَئِنُّوا؛ لِأَنَّ عِنَايَتَهُ بِالنَّاسِ وَحِرْصَهُ عَلَىٰ خُشُوعِهِمْ، وَعَلَىٰ إِفَادَتِهِمْ، أَهَمُّ مِنْ كَوْنِهِ يَخْتِمُ، وَلَيْسَ هَذَا مُوجِبًا لِأَنْ يَتَعَجَّلَ وَلَا يَتَأَنَّىٰ فِي قِرَاءَتِهِ، وَلَا يَتَحَرَّىٰ الْخُشُوعَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، بَلْ يَتَحَرَّىٰ هَذِهِ الْأُمُورَ أَوْلَىٰ مِنْ مُرَاعَاةِ الْخَتْمَةِ».

إِنَّ التَّأَمُّلَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَذْكُرُ أَفْعَالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَدِقَّةَ تَدْبِيرِهِ ﷻ فِي الرِّزْقِ وَالرِّعَايَةِ، تَجْعَلُ الْمؤْمِنَ يَعْرِفُ عَظَمَةَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا تَبْهَرُ الْعُقُولَ مَهْمَا كَانَ مُسْتَوَاهَا الثَّقَافِيُّ -أَيْ: مُسْتَوَىٰ الْعُقُولِ الثَّقَافِيُّ وَالْإِدْرَاكِيُّ-.

فَحِينَمَا يَذْكُرُ اللهُ -تَعَالَىٰ- خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ زِينَةِ الْكَوَاكِبِ، فَإِنَّ الْمُتَأَمِّلَ -حَتَّىٰ لَوْ كَانَ مِنَ الْعَوَامِّ أَوْ مِنَ الْبَادِيَةِ- يُدْرِكُ عَظَمَةَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي يَهْتَدِي بِكَوَاكِبِهَا، يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ سُحُبِهَا، مُنْتَظِرًا الرِّزْقَ مِنَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

فَهُوَ يُتَابِعُ حَرَكَةَ السُّحُبِ، وَاتِّجَاهَ الرِّيحِ الَّتِي تَسُوقُ السُّحُبَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَعْلَمُ أَنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ هَذِهِ النِّعَمَ.

وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ الْمُثَقَّفُ، كُلَّمَا زَادَتْ ثَقَافَتُهُ وَعِلْمُهُ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يَزْدَادُ يَقِينًا وَإِيمَانًا بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّوَعَلَا.

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]:

«وَأَنْزَلَهُ بِهَذَا اللِّسَانِ لِنَعْقِلَهُ وَنَفْهَمَهُ، وَأَمَرَنَا بِتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِعُلُومِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَدَبُّرَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ مُحَصِّلٌ لِلْعُلُومِ وَالْأَسْرَارِ.

الْقِرَاءَةُ بِتَأَمُّلٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَأَثُّرٍ قَوْلًا وَفِعْلًا، تَرْتَقِي بِالْمُؤْمِنِ إِلَىٰ مَرَاتِبَ عَالِيَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَهُوَ يُرَتِّلُ كَلَامَ اللهِ، وَيَتَأَمَّلُ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ، وَيَدْعُو اللهَ بِعِدَّةِ أَدْعِيَةٍ، فَبَلَغَ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ.

وَهُوَ كَذَلِكَ يَسْتَجِيبُ لِأَوَامِرِهِ، وَيَنْزَجِرُ عَنْ نَوَاهِيهِ، فَمَنْ حَظِيَ بِهَذَا فَقَدْ أَفْلَحَ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيَصِلُ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ سَنَامُ الْعُبُودِيَّةِ».

وَقَدْ سَرَدَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ جُمْلَةً مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُحَصِّلَةِ لِمَحَبَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، **فَذَكَرَ مِنْهَا مَا يَلِي:**

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ.

فَهَذَا مِنْ أَوَّلِ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَحْصِيلِ مَحَبَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: قِرَاءَةُ كِتَابِهِ جَلَّوَعَلَا بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ.

مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ -تَعَالَىٰ- وَصِفَاتِهِ، وَمُشَاهَدَتُهَا، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَيَادِينِهَا.

مُشَاهَدَةُ بِرِّهِ -تَعَالَىٰ- وَإِحْسَانِهِ، وَنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَانْكِسَارُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْخَلْوَةُ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَتِلَاوَةُ كِتَابِهِ، ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ.

التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ.

فَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ هَذِهِ الْأَسْبَابَ لِمَحَبَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا التَّدَبُّرُ فِي كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهِ.

وَالتَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ يَتَحَقَّقُ بِكَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّأَمُّلِ، وَالِاسْتِجَابَةِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤَدِّي إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْعَوْنِ الرَّبَّانِيِّ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ قَوْلُهُ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ جَلَّ وَعَلَا: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ».

فَمَاذَا يَنْتَظِرُ الْعَبْدُ بَعْدَ هَذَا الْوَعْدِ وَالْعَوْنِ؟!

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَذِكْرِ بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ وَحُقُوقِ مُرْسِلِهِمْ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ رِعَايَةِ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُ، مِنْ حِينَ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَىٰ يَوْمَ يُوَافِي رَبَّهُ وَيَقْدُمُ عَلَيْهِ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ دَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ، وَالَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِأَلَمٍ وَلَا نَكَدٍ وَلَا تَنْغِيصٍ.

وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَخَاءٌ، وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرَحٌ.

بَيَّنَ تَفَاصِيلَ ذَلِكَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنَهُ، وَكَذَلِكَ نَصَّ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَبَادِئِ وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ -تَعَالَىٰ- وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ -يَعْنِي كِتَابَ اللهِ جَلَّوَعَلَا- تَنْهَضُ بِالْعَبْدِ وَتُنْهِضُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ.

وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ، وَظُلَمِ الْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ.

وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ مِنَ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ.

وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللَّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ!

وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ:

الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَاعْتَصِمْ بِاللهِ وَاسْتَعِنْ بِهِ! وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ»، انْتَهَىٰ كَلَامُ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

التَّدَبُّرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ، سَوَاءٌ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ أَوِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَهُوَ سَبِيلٌ لِلِارْتِقَاءِ بِجَمِيعِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

ثَمَرَاتُ التَّدَبُّرِ عَلَى نَوْعَيْنِ

وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ، وَوَضَّحَ النَّتَائِجَ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ؛ وَهِيَ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَوَّلًا: ثِمَارٌ مُبَاشِرَةٌ؛ وَمِنْهَا:

مَعْرِفَةُ اللهِ وَتَعْظِيمُهُ، فَإِنَّ مَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ مَعْرِفَةً بِاللهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ عَظَّمَ كَلَامَهُ، وَتَمَعَّنَ فِيهِ، وَأَصْغَىٰ إِلَيْهِ مُتَأَمِّلًا مُتَدَبِّرًا، وَمِنْ ثَمَّ أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّةِ بَطْشِهِ».

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: «كَمَا لَا يُقْدَرُ أَنْ يُسْمَعَ مَنْ فِي الْقُبُورِ.. أَنْ يُسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ فَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَكَذَلِكَ لَا يُقْدَرُ أَنْ يُنْفَعَ بِمَوَاعِظِ اللهِ وَبَيَانِ حُجَجِهِ مَنْ كَانَ مَيِّتَ الْقَلْبِ مِنْ أَحْيَاءِ عِبَادِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفَهْمِ كِتَابِهِ وَتَنْزِيلِهِ، وَوَاضِحِ حُجَجِهِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ هُوَ عَدَمُ مَعْرِفَتِهِمْ للهِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَعْظِيمَ الْقُرْآنِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَكَمَا أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- عَظِيمٌ فِي ذَاتِهِ، فَإِنَّهُ عَظِيمٌ فِي صِفَاتِهِ، وَمِنْهَا كَلَامُهُ الْقُرْآنِيُّ، وَقَدْ سَمَّاهُ سُبْحَانَهُ: بُرْهَانًا، وَنُورًا، وَفُرْقَانًا، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَعَظَّمَهُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيُعَظِّمُوا قَدْرَهُ وَيَفْهَمُوهُ؛ لِيَنَالُوا شِفَاءَ قُلُوبِهِمْ.

فَإِذَا عَظُمَ فِي صَدْرِكَ تَعْظِيمَ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَرْفَعَ وَلَا أَشْرَفَ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَحْلَىٰ مِنَ اسْتِمَاعِ كَلَامِ اللهِ ﷻ، وَفَهْمِ مَعَانِي قَوْلِهِ، تَعْظِيمًا وَحُبًّا لَهُ وَإِجْلَالًا، إِذْ كَانَ -تَعَالَىٰ- قَائِلَهُ، فَحُبُّ الْقَوْلِ عَلَىٰ قَدْرِ حُبِّ قَائِلِهِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ تَمَامَ الْعِبَادَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لِرَبِّهِ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ».

وَقَالَ: «فَهَذِهِ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، مَعْرِفَةُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ، فَقَامَ بِذَلِكَ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ الظَّالِمُونَ الْمُعْرِضُونَ».

فَأَوَّلُ مَا يُتَحَصَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الثِّمَارِ الْمُبَاشِرَةِ لِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: مَعْرِفَةُ اللهِ وَتَعْظِيمُهُ.

وَثَانِي ذَلِكَ: تَحْقِيقُ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلْقُرْآنِ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ فِي أَحْوَالِهِ وَفِي مَآلَاتِهِ، كَمَا تُبَيِّنُ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

وَالْقُلُوبُ إِذَا فَقِهَتْ مُرَادَ اللهِ مِنْ آيَاتِهِ صَارَ أَصْحَابُهَا إِلَيْهِ بِاطْمِئْنَانٍ وَثَبَاتٍ، لَا تُزَعْزِعُهُ بِدَعُ الْمُحْدِثِينَ، وَلَا تَأْوِيلَاتُ الْجَاهِلِينَ، وَلَا فِتَنُ الْمُضِلِّينَ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَمَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ»، وَذَكَرَ الْكَلَامَ الَّذِي مَرَّ قَرِيبًا.

مِنَ الثِّمَارِ الَّتِي يُتَحَصَّلُ عَلَيْهَا، وَهِيَ ثِمَارٌ مُبَاشِرَةٌ لِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا:

زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِاللهِ -تَعَالَىٰ- وَخَشْيَتُهُ؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلْقُرْآنِ يَسْتَشْعِرُ عَظَمَةَ اللهِ فَيَزْدَادُ إِيمَانًا، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَالْآيَةُ الْأُولَىٰ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدِهِ، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ مِنَ اللهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: «﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أَيْ: فَرَقَتْ -أَيْ: فَزِعَتْ وَخَافَتْ-».

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أَيْ: زَادَتْهُمْ خَشْيَةً».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقَّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ؛ أَيْ خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ، فَازْدَادُوا إِيمَانًا بِسَبَبِ فَهْمِهِمْ لِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَحْكَامٍ، ثُمَّ الْعَمَلِ بِهَا، وَالرَّغْبَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَبْشِرُونَ يُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْمِنَّةِ الْعَظِيمَةِ، مِنْ إِنْزَالِ الْآيَاتِ وَفَهْمِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ صُدُورَهُمْ مُنْشَرِحَةٌ، وَقُلُوبَهُمْ مُطْمَئِنَّةٌ؛ فَيُبَادِرُونَ إِلَىٰ الْعَمَلِ مَعَ فَرَحٍ وَاسْتِبْشَارٍ».

التَّدَبُّرُ فِي الْقُرْآنِ لَهُ أَثَرُهُ فِي رِقَّةِ النُّفُوسِ وَخَشْيَتِهَا مِنْ بَارِئِهَا، وَرَجَائِهَا فِيهِ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

قَالَ قَتَادَةُ: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ، الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

فَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَقَوَارِعَ آيَاتِهِ وَوَعِيدَهُ، أَصَابَتْهُمْ رَهْبَةٌ وَخَشْيَةٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا جُلُودُهُمْ، وَإِذَا ذَكَرُوا رَحْمَةَ اللهِ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِ وَعْدِهِ وَأَلْطَافِهِ تَبَدَّلَتْ خَشْيَتُهُمْ رَجَاءً، وَهَيْبَتُهُمْ رَغْبَةً.

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرَ خَشْيَةً وَتَدَبُّرًا لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِهِ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَاسْتَنَّ -أَيِ اسْتَاكَ- فَصَلَّىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَثَرِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِ، وَإِكْثَارِهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، كَمَا كَانَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، كَانَ حَالُهُمْ أَكْثَرَ خَشْيَةً وَخَوْفًا عِنْدَ تِلَاوَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

فَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].. بَكَىٰ حَتَّىٰ يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ».

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ ﷻ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ نَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ! فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «سُئِلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَبْكُونَ».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ سَاقِطًا، فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟

قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَوْ سَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ!

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْخَوْفُ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ أَوْجَبَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ، فَلَا يَمْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَهُ، فَتَرَاهُ مُطْرِقًا مُتَذَلِّلًا مُتَأَدِّبًا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِ مَا يَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَذْمُومُ فَتَكَلُّفُهُ وَالتَّبَاكِي وَمُطَأْطَأَةُ الرَّأْسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ، لِيُرَوْا بِعَيْنِ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالِ، وَذَلِكَ خُدَعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ».

إِنَّ مِنْ ثِمَارِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، إِذَا تَدَبَّرَ الْمُؤْمِنُ الْقُرْآنَ زَالَتْ عَنْهُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ فَتَصْرِفُهُ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي الْمَعَاصِي وَالظُّلُمَاتِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «أَيْ مِنَ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ وَدَنَسٍ.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ أَيْ: مُحَصِّلٌ لَهَا الْهِدَايَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْمُصَدِّقِينَ الْمُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَقُولُ -تَعَالَىٰ- ذِكْرُهُ: وَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ يُسْتَشْفَىٰ بِهِ مِنَ الْجَهْلِ وَمِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبَصَّرُ بِهِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ رَحْمَةٌ لَهُمْ دُونَ الْكَافِرِينَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، وَيُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، فَيُدْخِلُهُمْ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ، فَهُوَ لَهُمْ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ مِنَ اللهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

فَالْقُرْآنُ يَهْدِي الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُثْمِرُ لَهُمُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، فَلَا يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ؛

لِأَنَّهُمْ فَهِمُوا مُرَادَ اللهِ، وَعَرَفُوا مَقْصُودَهُ، فَانْدَفَعَتْ عَنْهُمُ الْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ وَالْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الِامْتِثَالُ لِمَا فِي الْقُرْآنِ وَالْعَمَلُ بِهِ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَقِفُ عِنْدَ مُجَرَّدِ السَّمَاعِ وَالتَّأَثُّرِ، بَلْ يَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالِاسْتِجَابَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ، وَإِلَّا فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِهِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّدَبُّرُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا أُمِرَ الْيَهُودُ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ اسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا، وَقَالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أَيْ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُؤْمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ النَّافِعُ؛ الْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

أَيْ: لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَبِالْحَقِّ الْمُوَافِقِ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِهِمْ، فَلَمَّا كَفَرُوا بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، أَيْ طَرَحُوهُ رَغْبَةً عَنْهُ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِعْرَاضِ، كَأَنَّهُمْ فِي فِعْلِهِمْ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَحَقِيقَةَ مَا جَاءَ فِيهِ.

وَأَمَّا السَّلَفُ الصَّالِحُ فَقَدِ امْتَثَلُوا لِأَوَامِرِ الْقُرْآنِ وَاجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ؛ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما **قَالَ**: «كَانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْمَىٰ، وَلَا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ».

وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَسَهُلَ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِ».

www.menhag-un.com

فَهَذَا كَانَ مَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مَنْهَجُهُ فِي تَعْلِيمِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كِتَابَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، تَلَازُمُ الْعِلْمِ وَالْمَعْنَىٰ وَالْعَمَلِ، فَلَا عِلْمَ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ السَّابِقِ وَالْعَمَلِ بِهِ، كَانَ الصَّحَابَةُ كَذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْهَجَ السَّلَفِ وَمِنْهَاجَ النُّبُوَّةِ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَأَصْحَابُهُ رضي الله عنهم؛ فَهَذَا لَا يَنْجُو الْمَرْءُ إِلَّا بِهِ.

فَهَذَا مَا كَانُوا عَلَيْهِ تِجَاهَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ وَيَفْهَمُونَ، يَفْقَهُونَ وَيَعْمَلُونَ.

«كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ يُحَقِّقُ الْيَقِينَ التَّامَّ لِلنَّفْسِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ، وَالْقَلْبُ كَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ وَتَنْمُوَ إِلَّا بِهَذَا الْمَاءِ، فَالْقَلْبُ كُلَّمَا تَفَكَّرَ فِي مَعَانِي كَلَامِ اللهِ حَصَلَ لَهُ الرِّيُّ وَالشِّبَعُ وَالنُّمُوُّ وَالِاسْتِقْرَارُ وَالثَّبَاتُ وَالْعُلُوُّ.

وَلَمَّا عَلِمَ اللهُ حَاجَةَ الْقَلْبِ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ كَرَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الشَّرِيفَةَ فِي كِتَابِهِ، وَنَوَّعَ فِي بَيَانِهَا، وَضَرَبَ لَهَا الْأَمْثَالَ، وَصَرَّفَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْقَوْلِ مَا يَحْصُلُ بِهِ لِلْقُلُوبِ الْمُتَدَبِّرَةِ حَيَاةٌ لَا تَمُوتُ مَعَهُ أَبَدًا.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ: وُصُولُ الْمُتَدَبِّرِ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُوَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَتَرَىٰ الْحِكَمَ وَالْقِصَّةَ وَالْإِخْبَارَاتِ تُعَادُ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، كُلُّهَا مُتَوَافِقَةٌ مُتَصَادِقَةٌ لَا يَنْقُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ فَبِذَلِكَ يَعْلَمُ كَمَالَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أَيْ: فَلَمَّا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اخْتِلَافٌ أَصْلًا».

مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يُتَحَصَّلُ عَلَيْهَا بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ مِنْ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَفَهُّمِ مَعَانِيهِ: أَنْ تَتَحَقَّقَ إِنَابَةُ النَّفْسِ لِرَبِّهَا، وَتَوْبَتُهَا مِنْ مَعَاصِيهَا، فَإِنَّ التَّدَبُّرَ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ يُفِيدُ فِي إِيقَاظِ الْغَافِلِينَ وَاللَّاهِينَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ، وَيَرُدُّهُمْ إِلَىٰ جَادَّةِ الصَّوَابِ، وَاتِّبَاعِ مَنْهَجِ الْحَقِّ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ مِنْ تَوْبَةِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ؛ قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ الْفُضَيْلُ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَحْدَهُ، فَخَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِيَقْطَعَ الطَّرِيقَ، فَإِذَا هُوَ بِقَافِلَةٍ قَدِ انْتَهَتْ إِلَيْهِ لَيْلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اعْدِلُوا بِنَا إِلَىٰ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَإِنَّ أَمَامَنَا رَجُلًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ يُقَالُ لَهُ: الْفُضَيْلُ.

قَالَ: فَسَمِعَ الْفُضَيْلُ فَأُرْعِدَ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، أَنَا الْفُضَيْلُ، جُوزُوا -أَيْ: سِيرُوا فِي الطَّرِيقِ وَاسْلُكُوهُ-، وَاللهِ لَأَجْتَهِدَنَّ أَلَّا أَعْصِيَ اللهَ أَبَدًا.

فَرَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ».

وَرُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَىٰ أَنَّهُ أَضَافَهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالَ: أَنْتُمْ آمِنُونَ مِنَ الْفُضَيْلِ، وَخَرَجَ يَرْتَادُ لَهُمْ عَلَفًا، ثُمَّ رَجَعَ فَسَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، قَالَ: بَلَىٰ وَاللهِ قَدْ آنَ يَا رَبِّ.

فَكَانَ هَذَا مُبْتَدَأَ تَوْبَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: الْفَوْزُ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، وَهَذَا الْخَيْرُ يَتَأَتَّىٰ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهَا وَأَسْبَابِهَا وَغَايَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا، وَمَآلِ أَهْلِهَا، وَتَتْلُّ فِي يَدِهِ -أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ».

«لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتْلُّ فِي يَدِ الْعَبْدِ -أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ

النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَتُرِيهِ قَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَتُعَرِّفُهُ مَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ».

كُلُّ هَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ الْمُبَاشِرَةِ، الَّتِي يُحَصِّلُهَا الْمَرْءُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ وَجَسَدِهِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بِمُجَرَّدِ الْإِقْبَالِ مَعَ الْإِكْبَابِ عَلَىٰ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا تَدَبُّرًا وَتَفَهُّمًا وَوَعْيًا وَإِدْرَاكًا لِمَرَامِي الْآيَاتِ وَمَقَاصِدِ مَعَانِيهَا.

فَإِذَا قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، وَإِذَا تَلَوْنَاهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَدَبَّرَهُ.

وَقَدْ مَرَّ فِي بِدَايَةِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ بَيَانُ حُكْمِ التَّدَبُّرِ، وَأَنَّ التَّدَبُّرَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْإِتْيَانِ بِهَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

وَهُنَاكَ ثِمَارٌ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ يُثْمِرُهَا التَّدَبُّرُ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهِ، وَالْغَوْصُ عَلَىٰ مَرَامِيهِ؛ مِنْهَا:

الْحَثُّ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَقُودُ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ إِلَىٰ الْكَشْفِ عَنْ سُنَنٍ وَقَوَانِينَ تَتَعَلَّقُ بِالْكَوْنِ، مَعَ مَا فِي تَسْخِيرِ تِلْكَ السُّنَنِ لِتَنْمِيَةِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ؛ إِذْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ وَرَفَعَ مَقَامَهُمْ، فَقَرَنَهُمْ ﷻ بِذِكْرِهِ فِي الشَّهَادَةِ حِينَمَا قَالَ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

هُنَاكَ ثِمَارٌ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ لِلتَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ مِنْهَا أَيْضًا:

ظُهُورُ مُجْتَهِدِينَ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَعَلَّمُوا كَيْفَ يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، وَكَيْفَ يَتَفَهَّمُونَ الْمَعَانِيَ، وَكَيْفَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ إِظْهَارِ وَاسْتِنْبَاطِ مَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَاتِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ.

وَكَذَلِكَ.. التَّدَبُّرُ يُحَرِّكُ الْعَقْلَ، وَيَسْتَثِيرُ طَاقَتَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَيُنَمِّي مَهَارَاتِ الْبَحْثِ التَّجْرِيبِيِّ، وَيُؤَسِّسُ لِلْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ الَّتِي تَرَىٰ أَنَّ التَّفَكُّرَ فِي الْكَوْنِ وَالْأَنْفُسِ فَرِيضَةٌ وَعِبَادَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهَا تَحْقِيقٌ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وَمِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ:

إِيقَاظُ النُّفُوسِ عَلَىٰ ضَرُورَةِ الْخُرُوجِ مِنْ فِكْرِ التَّبْرِيرَاتِ، وَإِلْقَاءِ الْمَلَامِ عَلَىٰ الْآخَرِينَ، إِلَىٰ فِكْرِ نَقْدِ الذَّاتِ وَالْإِزْرَاءِ وَالْحَطِّ عَلَيْهَا، وَهَذَا إِذَا مَا تَحَصَّلَ الْمَرْءُ عَلَيْهِ عَرَفَ عُيُوبَهُ، فَإِذَا عَرَفَ عُيُوبَهُ أَقْبَلَ عَلَيْهَا مُعَالِجًا وَمُطَهِّرًا.

ثَمَرَاتُ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ يُورِثُ الْمُؤْمِنَ مَلَكَةً يَتَمَكَّنُ بِهَا مِنْ تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ نَازِلَةٍ تَحُلُّ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَفِي كِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَلِّهَا، إِمَّا نَصًّا أَوْ دَلَالَةً أَوْ قِيَاسًا.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَيْسَتْ تَنْزِلُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ دِينِ اللهِ نَازِلَةٌ إِلَّا وَفِي كِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- الدَّلِيلُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْهُدَىٰ فِيهَا».

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تَنُصَّ عَلَىٰ حُكْمِ كُلِّ جُزْئِيَّةٍ عَلَىٰ حِدَتِهَا، وَإِنَّمَا أَتَتْ بِأُمُورٍ كُلِّيَّةٍ وَعِبَارَاتٍ مُطْلَقَةٍ تَتَنَاوَلُ أَعْدَادًا لَا تَنْحَصِرُ».

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يَتَلَقَّوْا مَعْنَىٰ كَلَامِ اللهِ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَرَءُوا عَشْرَ آيَاتٍ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّىٰ يَعْرِفُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَيُنَزِّلُونَهَا عَلَىٰ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ، فَيَعْتَقِدُونَ مَا حَوَتْ وَاحْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَيَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَيُدْخِلُونَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَشْهَدُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمَوْجُودَةِ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ.

وَيُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ هَلْ هُمْ قَائِمُونَ بِهَا أَوْ مُخِلُّونَ؟ وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ وَإِيجَادِ مَا نَقَصَ مِنْهَا؟

وَكَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنَ الْأُمُورِ الضَّارَّةِ؟

فَيَهْتَدُونَ بِعُلُومِهِ، وَيَتَخَلَّقُونَ بِآدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ خِطَابٌ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِمْ، وَمُطَالَبُونَ بِمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ.

فَمَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكُوهُ، وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ فِي تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ، انْفَتَحَ لَهُ الْبَابُ الْأَعْظَمُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَقَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ، وَاسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ، وَاسْتَغْنَىٰ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَنْ كَثْرَةِ التَّكَلُّفَاتِ، وَعَنِ الْبُحُوثِ الْخَارِجِيَّةِ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ قَدْ أَخَذَ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ جَانِبًا قَوِيًّا، وَكَانَ لَهُ إِلْمَامٌ وَاهْتِمَامٌ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْوَالِهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَىٰ هَذَا الْمَطْلَبِ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقُرْآنِ: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّ فِي نَوْعٍ وَقَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعَقِّبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

وَهَذِهِ الْآفَةُ تَسْمَعُهَا كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ جَلَّوَعَلَا وَلَا يُوَحِّدُونَ، فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: هَذِهِ أُمَّةُ التَّوْحِيدِ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ التَّوْحِيدِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْأُمَّةِ شِرْكٌ.

وَكَأَنَّهُمْ يُصَادِمُونَ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ الْمَأْمُونِ ﷺ عَنِ ارْتِدَادِ فِئَامٍ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخُلَصَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُقُوعِ الشِّرْكِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ.

فَنَسْمَعُ هَذَا كَثِيرًا؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ دُخُولَ الْأُمَّةِ تَحْتَ النُّصُوصِ الَّتِي فِيهَا التَّحْذِيرُ وَفِيهَا التَّنْفِيرُ، وَفِيهَا مَعَالِمُ التَّوْحِيدِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُسَارَ عَلَىٰ دَرْبِهَا وَأَلَّا تُجَانَبَ.

مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَالُوا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ -أَيْ: مِمَّنْ قَالَ- حَدِيثَ عَهْدٍ بِكُفْرٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَىٰ حُنَيْنٍ لِلِقَاءِ هَوَازِنَ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ لَمَّا مَرُّوا بِسِدْرَةٍ عَظِيمَةٍ:

يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ!

قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! قُلْتُمْ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

فَانْظُرْ هَذَا التَّشْبِيهَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَعَلَ قَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَعْذُرْهُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَسِيرٍ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلَكِنْ بَيَّنَ عِظَمَ مَا قَالُوهُ لِيُشَنِّعَ عَلَيْهِ، وَلِيُنَفِّرَ مِنْهُ، حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِيهِ بَعْدَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ حَتَّىٰ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَتَتَّبِعُ دُرُوبَهُمْ وَتَسْلُكُ مَسَالِكَهُمْ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتَهُ.

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**».

النَّبِيُّ ﷺ -يَقُولُ قَائِلٌ:- يَصِفُ وَاقِعًا، لَا حِيلَةَ لَنَا فِيهِ، فَهَذَا أَمْرٌ كَوْنِيٌّ، وَالْأُمُورُ الْكَوْنِيَّةُ لَا تُدْفَعُ، فَسَيَقَعُ هَذَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ!!

وَلَا بِمِثْلِ هَذَا يُحْتَجُّ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ هَذِهِ حُجَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَاهُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

إِذَنْ؛ عِنْدَمَا نَقْرَأُ كَلَامَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَضَعَ فِي أَنْفُسِنَا هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ أَنَّ الْحَوَادِثَ النَّازِلَةَ وَالْوَقَائِعَ الْمُسْتَجَدَّةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهَا الْآيَاتُ، لَا بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا تَصِفُ مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَمَا يَقَعُ، وَلَكِنْ هِيَ تَدْخُلُ تَحْتَ تِلْكَ الْآيَاتِ بِدَلَالَاتِهَا وَمَعَانِيهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

قَضِيَّةُ تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ مُتَنَاوَلَةٌ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: أَلَا تُصَلُّونَ؟**

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا.

فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ -يَعْنِي بِيَدِهِ- وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]».

فَهَذِهِ هَذِهِ، وَهِيَ مُنَزَّلَةٌ عَلَىٰ هَذَا الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ.

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: «**خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ** رضي الله عنهما، **عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ -وَكَانَ يَخْطُبُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ- فَأَخَذَهُمَا فَصَعِدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ؛** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، **رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ! ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

فَهَذَانِ شَاهِدَانِ عَلَىٰ تَنْزِيلِ النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ عَلَىٰ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمُسْتَجَدَّةِ، كَمَا كَانَ فِي قَوْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَكَمَا كَانَ فِي فِعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ.

وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم سَارُوا عَلَىٰ هَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْحَوَادِثِ النَّازِلَةِ.

صِدِّيقُ الْأُمَّةِ الْأَكْبَرُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه حِينَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَأَى رضي الله عنه تَوَقُّفَ الْبَعْضِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ، صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَخَطَبَ خُطْبَتَهُ الشَّهِيرَةَ الْبَلِيغَةَ، حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

فَكَانَ هَذَا التَّنْزِيلُ كَالْغَيْثِ الْهَتَّانِ النَّازِلِ عَلَىٰ الظَّمْآنِ، فَخَفَّفَ الْمُصَابَ، وَحَسَمَ الْجَدَلَ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِتِلْكَ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتْلُوَهَا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه.

لَا يَزَالُ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ يَسِيرُونَ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ، فَمِنَ التَّنْزِيلِ الصَّحِيحِ لِلْآيَاتِ مَا ذَكَرَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قَالَ: «نَزِّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَطَابِقْ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا، وَأَنْتَ تَرَىٰ كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلَّ وَقْتٍ، فِي الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْحَيَوَانِ،

وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلَّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَفَوَاكِهِهِمْ، وَأَهْوِيَتِهِمْ وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ وَخَلْقِهِمْ، وَصُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجَبُ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

قَالَ: وَلَقَدْ كَانَتِ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتِ الْبَرَكَةُ فِيهَا أَعْظَمَ، وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ أَنَّهُ وُجِدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ صُرَّةٌ فِيهَا حِنْطَةٌ كَأَمْثَالِ نَوَىٰ التَّمْرِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا -أَيْ عَلَىٰ تِلْكَ الصُّرَّةِ-: هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِ أُولَئِكَ السَّابِقِينَ، حُكْمًا قِسْطًا وَقَضَاءً عَدْلًا.

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونِ: «**إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ** -أَوْ **عَذَابٍ- أُرْسِلَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَذَلِكَ سَلَّطَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- الرِّيحَ عَلَىٰ قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَىٰ فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَفِي نَظِيرِهَا، وَهِيَ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْمَالَ الْبِرِّ وَأَعْمَالَ الْفُجُورِ.. أَعْمَالَ الْبَارِّ وَأَعْمَالَ الْفَاجِرِ، جَعَلَهَا مُقْتَضِيَاتٍ لِآثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنْعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ.

وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسَ فِي الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَىٰ الضَّعِيفِ سَبَبًا لِجَوْرِ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنِ اسْتُرْحِمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِنِ اسْتُعْطِفُوا، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ.

فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَعْمَالَهُمْ فِي قَوَالِبَ وَصُوَرٍ تُنَاسِبُهَا، فَتَارَةً بِقَحْطٍ وَجَدْبٍ، وَتَارَةً بِعَدُوٍّ، وَتَارَةً بِوُلَاةٍ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهُمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تَحْضُرُهَا نُفُوسُهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنْعِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَؤُزُّهُمْ إِلَىٰ أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزًّا، لِتَحِقَّ كَلِمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلِيَصِيرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لَهُ.

وَالْعَاقِلُ يُسَيِّرُ بَصِيرَتَهُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ، فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَىٰ سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَىٰ دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللهُ بَالِغٌ أَمْرَهُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَبِاللهِ -تَعَالَىٰ- التَّوْفِيقُ»، رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

هَذَا الْمَقَامُ -وَهُوَ تَنْزِيلُ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ الْمُسْتَجَدَّةِ- مَزِلَّةُ أَقْدَامٍ، وَمَضِلَّةُ أَفْهَامٍ، إِذَا اسْتَعْمَلَهُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِ

الْهَوَىٰ أَوِ الْجَهْلُ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ سَلَامَةِ الْقَصْدِ وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الْهَوَىٰ السِّيَاسِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

مِنْ أَمْثِلَةِ مَنْ ضَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَ اسْتِخْدَامِ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «كَشَّافِهِ»، فَإِنَّهُ نَزَّلَ آيَةً فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَعَصُّبِهِ الِاعْتِزَالِيِّ ضِدَّ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ، فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾؛ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الْمُوجِبَةُ لِلِاتِّفَاقِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ كَلِمَةُ الْحَقِّ، وَقِيلَ: هُمْ مُبْتَدِعُو هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُمُ الْمُشَبِّهَةُ وَالْمُجَبِّرَةُ وَالْحَشْوِيَّةُ وَأَشْبَاهُهُمْ».

الْمُصِيبَةُ أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَ السُّنَّةِ ضِمْنَ الْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا، وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَفْخَرُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِمْ فَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُ أَهْلُ الْعَدْلِ وَأَهْلُ السُّنَّةِ.

كَذَلِكَ مَا فَعَلَهُ الْخَوَارِجُ مِنَ التَّخَبُّطِ وَالتَّخْلِيطِ فِي تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، جَهْلًا مِنْهُمْ وَسُوءَ فَهْمٍ؛ لِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرَاهُمْ شَرَّ الْخَلْقِ، وَيَقُولُ: «إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَىٰ آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ».

مِنَ الْهَذَيَانِ فِي هَذَا الشَّأْنِ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ فِي تَنْزِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] عَلَىٰ حَدَائِقِ الْحَيَوَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «قَدْ حُشِرَتِ الْوُحُوشُ، وَجُمِعَتْ فِي الْبَسَاتِينِ الْمُعَدَّةِ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ».

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ بَعْدَ ذَلِكَ بِذِكْرِ لَازِمِ ذَلِكَ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذَا الْمَفْهُومِ فَقَالَ: «وَهُوَ فِعْلٌ مُحَرَّمٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ شَرْعًا مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: تَعْذِيبُ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ بِسَجْنِهَا فِي الْأَقْفَاصِ وَمَنْعِهَا مِنْ حُرِّيَّتِهَا».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «وَيَكْفِي أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عِنْدَ وُجُودِهَا.

الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ هُوَ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُمَارِيُّ، فِي كِتَابِهِ «مُطَابَقَةُ الِاخْتِرَاعَاتِ الْعَصْرِيَّةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ سَيِّدُ الْبَرِيَّةِ ﷺ».

فَهَذَا الْأَمْرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَخُوفَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَلَّا يُقْدِمَ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا.

وَهَذَا الْخَطَأُ وَالزَّلَلُ وَالْخَطَلُ وَالدَّجَلُ فَاشٍ فِي الرَّوَافِضِ، فَتَجِدُهُمْ يَكْذِبُونَ لَا يَتَوَرَّعُونَ؛ يَقُولُونَ مَثَلًا:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]؛ هُمَا: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]: النَّبِيُّ ﷺ وَآلُهُ.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هَذَا إِنَّمَا يَقُولُهُ مَنْ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ، وَهُوَ بِالْهَذَيَانِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

دَرَجَاتُ التَّدَبُّرِ

وَالتَّدَبُّرُ دَرَجَاتٌ، فَالَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ مُسْتَوَيَاتٍ، وَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

«إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَنْظُرُ فِي الْآيَةِ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ، وَآخَرُ يَنْظُرُ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا مِائَةً أَوْ مِائَتَيْنِ».

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ:

* **الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ:** وَهِيَ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ؛ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وَهِيَ سِمَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّىٰ نَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ، فَالتَّفَكُّرُ وَالتَّذَكُّرُ بَذَارُ الْعِلْمِ، وَسَقْيُهُ مُطَارَحَتُهُ، وَمُذَاكَرَتُهُ تَلْقِيحُهُ.

وَمِنْ أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ هَذِهِ الْخِصَالُ -وَهِيَ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ-؛ لِأَنَّ الْفِكْرَةَ عَمَلُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ عَمَلُ الْجَوَارِحِ.

الْفِكْرُ فِي الدُّنْيَا حِجَابٌ عَنِ الْآخِرَةِ، وَعُقُوبَةٌ لِأَهْلِ الْوِلَايَةِ.

وَالْفِكْرَةُ فِي الْآخِرَةِ تُورِثُ الْحِكْمَةَ، وَتَجْلِي الْقَلْبَ.

التَّفَكُّرُ يُوقِعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَىٰ مَا لَا يُوقِعُهُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ الْمُجَرَّدُ، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ يُوجِبُ لَهُ انْكِشَافَ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوَهْمِ وَالْحَقِيقَةِ، إِذَا فَكَّرَ الْعَبْدُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَتَجَاوَزَ فِكْرُهُ مَبَادِيَهَا، وَوَضَعَهَا مَوَاضِعَهَا، وَعَلِمَ مَرَاتِبَهَا، فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَارِدُ الذَّنْبِ وَالشَّهْوَةِ تَجَاوَزَ بِفِكْرِهِ لَذَّتَهُ وَفَرَحَ النَّفْسِ بِهِ إِلَىٰ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحُزْنِ الَّذِي لَا يُقَاوِمُ تِلْكَ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُقْدِمُ عَلَيْهَا حِينَئِذٍ.

فَالتَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ أَوَّلُ مَا يُذْكَرُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ، وَالْفِكْرُ هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ مِنْ مَوْتِ الْفِطْنَةِ إِلَىٰ حَيَاةِ الْيَقَظَةِ، وَمِنَ الْمَكَارِهِ إِلَىٰ الْمَحَابِّ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ إِلَىٰ الزُّهْدِ وَالْقَنَاعَةِ، وَمِنْ سِجْنِ الدُّنْيَا إِلَىٰ فَضَاءِ الْآخِرَةِ، وَمِنْ ضِيقِ الْجَهْلِ إِلَىٰ سَعَةِ الْعِلْمِ، وَمِنْ مَرَضِ الشَّهَوَاتِ وَالْإِخْلَادِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، إِلَىٰ شِفَاءِ الْإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَمِنْ مُصِيبَةِ الْعَمَىٰ وَالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ إِلَىٰ نِعْمَةِ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللهِ، وَالْعَقْلِ عَنْهُ، وَمِنْ أَمْرَاضِ الشُّبُهَاتِ إِلَىٰ بَرْدِ الْيَقِينِ.

تَدَبُّرُ كَلَامِ اللهِ يُوجِبُ مَعْرِفَةَ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيُوجِبُ تَنْزِيهَ الرَّبِّ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَيُوجِبُ وَصْفَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

هَذِهِ الثَّمَرَاتُ لَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمَرْءُ إِلَّا بِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ.

وَالتَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

تَفَكُّرٌ فِيهِ، لِيَقَعَ عَلَىٰ مُرَادِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ.

وَتَفَكُّرٌ فِي مَعَانِي مَا دَعَا عِبَادَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

الْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْعِيَانِيِّ.

فَالْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَسْمُوعَةِ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ الْمَنْظُورَةِ.

وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ وَيُتَفَكَّرَ فِيهِ وَيُعْمَلَ بِهِ، لَا لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ مَعَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ.

فَهَذِهِ هِيَ الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ.

* **الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ**: التَّأَثُّرُ وَخُشُوعُ الْقَلْبِ.

فَهِمْتَ، تَدَبَّرْتَ، فَعَلِمْتَ، وَوَعَيْتَ الْمُرَادَ؛ فَيُحْدِثُ ذَلِكَ تَأَثُّرًا وَخُشُوعًا فِي الْقَلْبِ.

وَخُشُوعُ الْقَلْبِ ذِلَّتُهُ وَسُكُونُهُ للهِ؛ لِذَلِكَ تَسْمُو الرُّوحُ وَتَبْكِي الْعَيْنُ وَتَتَأَثَّرُ الْجَوَارِحُ، وَتَذِلُّ النَّفْسُ لِخَالِقِهَا، وَتَخْضَعُ لِرَبِّهَا، وَيُورِثُ ذَلِكَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَحَلَّ الْخُشُوعِ الْقَلْبُ».

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]:

«لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ فِي غَايَةِ الْجَزَالَةِ وَالْبَلَاغَةِ، اقْشَعَرَّتِ الْجُلُودُ مِنْهُ؛ إِعْظَامًا لَهُ، وَتَعَجُّبًا مِنْ حُسْنِ تَرْصِيعِهِ، وَتَهَيُّبًا لِمَا فِيهِ».

فَالتَّأَثُّرُ وَخُشُوعُ الْقَلْبِ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ سَيِّدُ الْخَاشِعِينَ؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:

«اقْرَأْ عَلَيَّ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟

قَالَ ﷺ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قَالَ لِي: «أَمْسِكْ».

فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ ﷺ، كَانَتْ عَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ، حَتَّىٰ تَهْمِلَانِ، يُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيزٌ، وَكَانَ بُكَاؤُهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْقُرْآنَ بُكَاءَ اشْتِيَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَإِجْلَالٍ، مُصَاحِبٌ ذَلِكَ لِلْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ.

وَأَمَّا السَّلَفُ، فَقَدْ وَرَدَ مِنْ خُشُوعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ رَبِّهِمُ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَلَكِنَّهُ كَمَا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، تَدْمَعُ عُيُونُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، وَأَمَّا مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْغَشَيَانِ وَالشَّهْقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.

*** الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ: الِاسْتِجَابَةُ وَالْخُضُوعُ.**

يُبَيِّنُ اللهُ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ إِنْزَالِ كِتَابِهِ اتِّبَاعُهُ وَالِاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِهِ وَالْخُضُوعُ لَهُ وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ نَهْجِهِ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وَقَدْ وَضَّحَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَلَاقَةَ الِانْقِيَادِ بِالْخُشُوعِ فَقَالَ:

«قِيلَ: مَعْنَىٰ الْخُشُوعِ: الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ، وَهَذَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُشُوعِ؛ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، يُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَقْرَءُونَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ».

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ، وَهُوَ وَارِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ»؛ «﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]: يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ».

فَهَذِهِ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ لِكَلَامِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُدًىٰ وَنُورًا، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

*** الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ: اسْتِخْرَاجُ الْحِكَمِ، وَاسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ، وَمَكَانَتُهَا أَنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ الْقَلْبِ وَنُورِ الْبَصِيرَةِ، وَأَنَّهَا تُثْمِرُ فِي الْقَلْبِ حَقَائِقَ الْإِيمَانِ.**

وَشُرُوطُ الِاسْتِنْبَاطِ وَاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ هِيَ: سَلَامَةُ الْمَقْصِدِ عِنْدَ بَيَانِ الْأَحْكَامِ، وَمَعْرِفَةُ مَوَاطِنِ الِاسْتِنْبَاطِ وَالنَّظَرِ، وَإِتْقَانُ الْعُلُومِ الْمُؤَهِّلَةِ لِلِاسْتِنْبَاطِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ الْحُجَّةِ، وَمُرَاعَاةُ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَغَايَةِ الْقُرْآنِ.

وَهَذَا الِاسْتِنْبَاطُ هُوَ مِنْ أَعْلَىٰ الدَّرَجَاتِ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ فَتَحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ حَتَّىٰ أَرَاهُ مَا لَا يَرَاهُ سِوَاهُ.

فَهَذِهِ هِيَ دَرَجَاتُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالْأَمْرُ أَمْرٌ كَبِيرٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، أَنْ يُتَدَبَّرَ، وَأَنْ تُتَدَبَّرَ آيَاتُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْمَلَ بِهِ بَعْدَ أَنْ يُفْهَمَ مُرَادُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا بِتَدَبُّرِهَا وَالنَّظَرِ فِي مَعَانِيهَا، حَتَّىٰ يُفْهَمَ الْمُرَادُ مِنْهَا، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَطْلُوبِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا مِنْ عِبَادِهِ فِي أَرْضِهِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَالْأَصْلِ الْأَصِيلِ، وَهُوَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

فَلْيَكُنْ هَذَا مِنَّا عَلَىٰ ذُكْرٍ، وَلْنَجْتَهِدْ دَائِمًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَعَامَلَ بِهِ مَعَهُ؛ هُوَ كَلَامُ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ الْإِفَادَةَ الْكَامِلَةَ، وَالِاسْتِفَادَةَ التَّامَّةَ مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ جَلَّ وَعَلَا؛ فَلْتَجْعَلْ فِي يَقِينِكَ أَنَّ اللهَ يُخَاطِبُكَ بِهِ مِنْهُ إِلَيْكَ؛ لِأَنَّهُ رِسَالَتُهُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْكَ رَسُولَهُ ﷺ فَبَلَّغَكَ، فَهَذَا كَلَامُهُ، أَدَّاهُ إِلَيْكَ رَسُولُهُ ﷺ، وَفِيهِ الْمَطْلُوبُ مِنْكَ، فَإِذَا مَا جَاءَكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ قُلْتَ: سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ.

وَإِذَا جَاءَكَ الْخَبَرُ قُلْ: سَمِعْتُ وَصَدَّقْتُ؛ فَحِينَئِذٍ تُفِيدُ مِنَ الْقُرْآنِ الْفَائِدَةَ الْجُلَّىٰ.

وَكَذَلِكَ عِنْدَ مُرَادِكَ الِاسْتِفَادَةَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ، مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَنَّكَ أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي يَأْتِيكَ يَخْرُجُ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْكَ.. إِلَىٰ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ: افْعَلْ، وَلَا تَفْعَلْ!

هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَ الرَّسُولَ ﷺ وَهُوَ يُخَاطِبُكَ فَمًا لِأُذُنٍ، وَأَنْتَ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ؟! هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَهُ ﷺ؟!

وَهُوَ أَحْرَصُ عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، وَلَا يَكْمُلُ إِيمَانُكَ إِلَّا بِأَنْ تُحِبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّتِكَ لِنَفْسِكَ.

هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَهُ؟! فَكَيْفَ بِكَلَامِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا؟!

وَإِذَا سَمِعْتَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤].. فَأَصْغِ إِلَيْهَا، وَارْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ تُدْعَىٰ إِلَيْهِ، أَوْ شَرٌّ تُحَذَّرُ مِنْهُ.

وَاللهُ -تَعَالَىٰ- الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com